لماذا أدعوه؟

دخلت الصالون، وهي ترتدي أجمل ابتسامة، تميط اللثام عن أسنان ناصعة وسعادة هائلة، قبل أن تشرع تقرأ الكتاب الذي أخرجته من حقيبتها الأنيقة، تقدمت نحوها مصففة شعرها بانشراح، رحبت بها بحرارة، ثم ناولتها صورة، قائلة: اخترت لك سيدتي، هذه التسريحة، فقد شعرت بأنها تناسبك. تصفحتها الزبونة السعيدة على عجل، وقالت، وهي تمدّ لها جوالها: لا، لدي تسريحة أجمل منها، إنها في هاتفي. تأملت المصففة شاشة الجوال الصغيرة بتأنٍّ، ثم ابتسمت قائلة: لكِ ما تريدين.

سرقت انتباهي تلك الزبونة البريطانية، لفتت نظري ليس بسبب ابتسامتها أو تسريحتها، بل بسبب عمرها، إنها تتجاوز الثمانين عامًا، لكنها تتحلى بروح وحيوية فتاة يافعة، مازالت تركض خلف الموضة والتسريحات الحديثة بحماسة، مازالت تقبل على الحياة، كأنها في العشرين.

جارها الأسكتلندي، الدكتور جيمس ميرليس ٧٣ عامًا، الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ١٩٩٦، يتشبث بالحياة هو الآخر، لكن بنظارته السميكة وأحلامه الكثيرة، كان يتحدث بحبور في لقائه التلفازي، كأنه فاز بنوبل أمس،

وليس قبل ١٤ عامًا، كان سعيدًا جدًّا، وهو يمطر المذيع بكلمات صينية تعلمها توًّا، لدى ميرليس شهية مفتوحة لالتهام المزيد من الكتب واللغات على الرغم من آلام عينيه الطفيفة. جدوله اليومي مزدحم بالفعاليات والأنشطة والفواكه. يبدأ يومه في الساعة السادسة صباحًا بالتهام صحيفة وتفاحة، ثم ينخرط في قراءة ما تيسر من كتاب، قبل أن يذهب إلى الجامعة، عصرًا يذهب إلى المعهد لتعلم اللغة الصينية، ومساء يمارس الرياضة، وتصفح بريده الإلكتروني، قبل أن يخلد إلى النوم يتناول موزة وكتابًا، يقول: كلما كان يومي متخمًا ازدادت بشرتي نصاعة وابتسامتي اتساعًا. يحلم ميرليس بأن يتعلم الصينية والألمانية وكثيرًا من المهارات التقنية المتسارعة، مستحضرًا كلمات الفيلسوف الإنجليزي، فرنسيس بيكون: الشيخوخة في الروح، وليست في الجسد.

الإنجليز ليسوا وحدهم الذين يتمتعون بالحياة، حتى آخر قطرة، فالسنغافوريون يفعلون ذلك بمهارة، يعترف رجل الأعمال السنغافوري الناجح تشو باو ٨٣ عامًا بأنه لا ينام سوى أربع ساعات يوميًّا، يقول: لا أودّ أن أهدر يومي في الفراش، يقضي تشو جلّ يومه في المكتب أو مع أبنائه، يلعب معهم كرة السلة أو يطهو لهم، يرى السنغافوري أن الموت يهرب منه كلما وجده سعيدًا، يقول في مذكراته التي صدرت

العام الماضي: أنا لا أخاف من الموت، سيحملني يومًا ما، عاجلًا أم آجلًا، لكن لماذا أدعوه قبل أوانه؟

المسنون في العالم يركضون، ويستمتعون، يتبرجون، ويتعلَّمون، لكن أقرانهم في دولنا العربية مريضون وحزينون ومكتئبون، يموتون قبل الموت.

لمَ لا نجد سبعينيًّا يدرس في الجامعة، أو يتعلم لغة أخرى؟ لمَ لا نجد كبيرة في السن تصبغ شعرها، وتغير تسريحتها بين الحين والآخر؟

لماذا تنطفئ حماسة معظم آبائنا في الستين؟ يقلع كبارنا عن السعادة والفرح مبكرًا، يحرمون أنفسهم والآخرين من إمكاناتهم إثر تقوقعهم وانزوائهم.

في الغرب، عندما يتقدم الإنسان في السن تظهر عليه ملامح الرفاهية والارتياح، فقد تحرر من كثير من الالتزامات، وتفرغ لهواياته وسعادته. في المقابل، يذوي إنساننا، عندما يكبر، تصيبه الأمراض الواحد تلو الآخر، إثر جلوسه وإحباطه، ينتظر الموت أن يلتقطه في أي لحظة.

الإقبال على الحياة يطيل العمر، ويسعد الإنسان، وينعكس على أدائه وعمله. ألم يقل سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»[1].

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٣٢٩٦).

فَلِمَ لا نطيل أعمار آبائنا بإسعادهم وإخراجهم من عزلتهم وقنوطهم، بتدريبهم على تقنيات حديثة وتحفيزهم على خوض غمار تجارب جديدة؟ إن من لا يجيد أصول اللعبة لن يخوضها، فلنعلمهم، ونعيد الحياة والحماسة إلى أرواحهم وأطرافهم.

علينا أن نشجِّع أمهاتنا وآباءنا وأقاربنا على ممارسة ما يحبون، وأن يلونوا حياتهم دون أن نطفئهم بعبارات قاسية سرًّا وعلانية على شاكلة: (متصابية) أو (مراهق في الخمسين) تجعلهم يذبلون، ويختفون.

تأثرت كثيرًا، عندما سألني قبل أشهر عدة رجل في العقد الخامس أن أساعده على كتابة رسالة نصية من جواله.

من لا يعرف كتابة رسالة هاتفية قطعًا لا يستطيع أن يرسل إيميلاً، أو يتصفح موقعًا إلكترونيًّا. الأمية في وقتنا الحاضر لم تعد تقتصر على القراءة، بل على التعاطي مع وسائل التقنية الحديثة.

فالإنجاز والإبداع لا يرتبطان بعمر ومرحلة معينة، تصفحوا أهم اختراعات العالم وابتكاراته ومؤلفاته، فستجدون أن خلفها مسنين يتدفقون حياة وموهبة، فَلِمَ لا نصفق لمسنينا، وندعمهم، ونؤازرهم كبقية العالم؟

تأمـل: إذا لم نغيِّر عاداتنا وسلوكياتنـا، فلن نكون أوفر حظًّا من آبائنا، فهم نتيجة لثقافتنا وأسلوبنا العقيم، وسنستمر متأخرين، ومتخلفين عن الركب، وسنهرم مبكرًا، وسنُهزَم مبكرًا، وسنموت قبل الموت.

obeikandl.com